

المعالم الدينيّة التاريخيّة بمدينة المنستير العتيقة^(*)

عمر بوزقندة

مهندس معماري رئيس

محافظ متحف الفنون الإسلامية

برباط المنستير.

عرفت مدينة المنستير ("روسبينا" قديما) إشعاعا تاريخيا هاما بفضل موقعها الاستراتيجي (شبه جزيرة) في وسط الساحل الشرقي للبلاد التونسية وقد عايشَت حضارات عديدة بدءا بفترة ما قبل التاريخ وتواصلت مع الفترة البونيقية والرومانية وانتهاء بالحضارة الإسلامية. وقد أطلق العرب لفظة "منستير" على الوحدة المعماريّة المشتركة بين الحصن والدير التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة الثامن ميلادي⁽¹⁾ واللفظة نفسها لاتينية Monasterium اقتبست من التعريف البيزنطي الذي كان شائعا في المشرق والمغرب لتعيين الحصون التي

(*) أُلقيت هذه المحاضرة بالمعهد الأعلى لأصول الدين يوم 18 أبريل 2007 بمناسبة الاحتفال بشهر التراث.

(1) عبد الوهاب حسن حسني، ورقات عن الحضارة العربية بافريقية، جمع وإشراف محمد العروسي المطوي، مكتبة المنار : ص 403، سنة 1972.

كانت تشاد على ساحل البحر لإنفراد الرهبان وكانت المدينة تعتبر محرسا ورباطا مقدّسا وضعت في شأنه العديد من الأحاديث النبويّة وآلف في "فضائله" أشهر علماء افريقيّة في العصر الوسيط.

ولعلّ ما يفضي على موقع المنستير ميزة إضافية توسطها بين ثلاثة عواصم إسلاميّة تاريخيّة : مدينة تونس شمالا ومدينة القيروان غربا ومدينة المهدية جنوبا ممّا نَمَى قوّة تفاعلها مع مختلف تيّارات الحضارة العربيّة الإسلاميّة خصوصا بعد تأسيس الرّباط الكبير في نهاية القرن الثّامن ميلادي الثّاني هجري من طرف هرثمة بن الأعين بأمر من الأمير العبّاسي هارون الرّشيد من بغداد وذلك سعيا وراء تحصين الشّواطئ التّونسيّة من الغارات البحريّة للنظام البيزنطي.

فالرّباط معناه في الأصل : ملازمة ثغر العدو لصدّ هجماته، وردّه على أعقابهِ والذود عن حمى الإسلام، لقوله تعالى في كتابه الكريم : "يا أيّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون" (2) وقوله تعالى : "وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوكم" (3).

لقد اضطلع الرّباط - في عهده الأوّل - بدور الحصن الدّفاعي، وقد تركّز في أحد أركانه ذلك المنار الشّاهق الذي أعدّ خصيصا لرصد حركات أساطيل الأعداء، وإرسال الإشارات الضوئيّة ليلا إلى بقيّة المحارس لإشعارها بطرق الخطر الدّاهم. أمّا في النّهار، فمن طاقات المنار كان يسرح الحمام الزّاجل ليحمل الرّسائل والإنذارات الحربيّة إلى سائر القلاع والحصون (4). ونجد هذه المهمّة مبيّنة في نصوص المؤرّخين اللّذين ذكروا عن إبراهيم بن

(2) آل عمران، 200.

(3) الأنفال، 61.

(4) عقير محمّد الطّاهر، المنستير عبر مواقع التّجذير والتّحرير، المطابع السريعة المنمنجة بالمنستير، ص 16، 1998.

أحمد بن الأغلب أمير إفريقية أنه "بنى الحصون والمحارس على سواحل البحر ، حتى كان يوقد النار من ساحل سبتة بالمغرب الأقصى للتنذير بالعدو فيصل الخبر إلى الإسكندرية بمصر في الليلة الواحدة".

وهذه المنارة هي على شكل اسطواني يتناقص سمكه في الارتفاع وقد قسّم سطحها الخارجي بثلاثة أفريز بارزة وبسيطة ويبلغ ارتفاعها ستة وعشرون مترا (26 م) ويصعد إليها على مستوى سطح مسجد الرباط من مدخل يفتح عليه يؤدي إلى سلم دائري يشتمل على تسعة وثمانون مرقاة (89) وتتسرب إليه الإضاءة من كوى صغيرة موزعة على ارتفاعات متباعدة.

ويعدّ هذا الشكل المعماري للمنارة نمطا جديدا ببلادنا ذلك أنّ إفريقية عرفت قبلها الصومعة المربعة الشامية الطراز التي قدّمت مع الولاة الأمويين من دمشق ولازال أقدم نماذجها يأخذ مكانه في المسجد الجامع بالقيروان وقد استمرّ استخدام مسقط هذه المنارة المربع في إفريقية والمغرب والأندلس وأصبح من خصائص مدرسة العمارة في الغرب الإسلامي. وإذا كان طراز الصومعة المربعة في إفريقية والمغرب قد اختصّ بالمساجد فإنّ الطراز الدائري اختصّ بقصور المراقبة وقد تؤدّي المنارة والمؤذنة في كلّ من المسجد والقصر مهمّة مشتركة للأذان والمراقبة.

أمّا التصميم الأصلي للرباط الذي يعود إلى عهد هرثمة، فهو في شكل مربع تقريبا طول ضلعه الجنوبي الشرقي (الموازي لجدار القبلة) من الخارج 80,32 متر والعمودي عليه 40,32 متر ويبلغ سمك السور الخارجي 25,1 متر وتقوم في زواياه ثلاثة أبراج دائرية الشكل بقي منها البرج الجنوبي الغربي قطره 60,4 متر، أمّا الزاوية الجنوبية الشرقية، فقد التحم بها برج مربع تقريبا طول ضلعه الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي 40,7 متر x 7 متر ويرتفع إلى مستوى سطح الطابق الأرضي لترتكز عليه المنارة الاسطوانية، وفي محور الجدار الجنوبي مدخل بارز قائم الزوايا يفتح على دهليز مستقيم مسقف بقبو

مقاطع يبلغ إمداده 12 مترا يؤدي إلى ساحة الرباط، وحول الساحة توجد مجموعة من الحجرات المفردة قائمة على جدران القصر الأربعة كان يقيم فيها المرابطون وقد أزيلت الأقسام الشمالية والشرقية والغربية منها بعد الزيادات التي أضيفت للقصر في عصور مختلفة وبقي الجزء القبلي وحده بكامل عناصره.

أما الطابق العلوي، فيشتمل على مسجد يقع محرابه فوق مدخل الرباط مباشرة ويتألف من سبع بلاطات مسقوفة بأقبية طويلة تتعامد على جدار القبلة وقد دعمت هذه الأقبية من وسطها بعقود متوازية مع حائط القبلة وترتكز على دعائم مستطيلة تقسم بيت الصلاة طولياً إلى قسمين. ويمكن الصعود إلى سطح المسجد بواسطة مدرج يقع على يسار مدخل المسجد ويرتكز على نصف عقد، وفي محور وسط السطح يوجد محراب يدل على وجود فضاء للصلاة به.

وقد وضعت منذ القرون الأولى لإنشاء الرباط أحاديث تحت على المرابطة بالمنستير باعتبارها باباً من أبواب الجنة اعتبرها بعضهم موضوعاً في حين ارتأى فضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أنها متداعية تحتاج إلى تصحيح وقد ذكر أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني سبعة منها في كتابه طبقات علماء إفريقية وتونس الذي حققه الدكتور علي الشابي. وأضحت بذلك المدينة مجمعا للأربطة حيث كانت تحتوي على أربعة رباطات أخرى والتي مازالت آثار ثلاثة منها قائمة إلى الآن :

* رباط سيدي ذويب (القرن الثالث هجري)

* رباط السيدة أم ملال عمّة المعز بن باديس (القرن الخامس هجري)

* رباط ابن الجعد الذي بني في أواسط القرن الثالث هجري بجزيرة الغدامسي.

* قصر شقائنص (هكذا) الذي لم يقع تحديد موقعه إلى الآن.

وفي زمن السلم الذي عقب هذا الطّور أصبح الرّباط مركزا للعبادة والتّصوف والتّعليم الجامعي، يؤمّه الطّلبة من كلّ حدب وصوب، لما يتوفّر لهم فيه من المأكل والمسكن، والتفرّغ لدراسة العلوم الدينية⁽⁵⁾. وقد أثبتت بعض المخطوطات للمؤرخين أنّ الرّباط كان مأوى للعلماء وطلبة العلم وله أوقاف كثيرة في كلّ بلد من بلاد إفريقية والأندلس ترفع إليه غلاتها وتخزن فيها قوتا لأهل العلم.

وأشار إلى هذا الدور الشّيخ الإمام محمّد الطّاهر بن عاشور⁽⁶⁾ في كتابه "أليس الصبح بقريب" بقوله : "أحسب أنّ الرّباط كانت من جملة مواضع التعليم".

ويكفي هذا الرّباط فخرا أن رابط به في أزمنة متفرّقة أفذاذ من نوابغ العلم من رجالات بلادنا⁽⁷⁾ : مثل أسد بن الفرات القاضي الأمير فاتح صقلية، وسحنون بن سعيد مؤسس المدرسة الإفريقية للقانون الإسلامي، والأمير إبراهيم الثّاني عقدة قلادة بني الأغلب الأشاوس، والطّبيب أحمد بن الجزّار مفخرة الطبّ العالمي في القرون الوسطى، والإمام ابن يونس، وغيرهم وهكذا نلاحظ أنّ الرّباط اضطلع في مختلف العهود الإسلامية - إلى جانب وظيفته الدّفاعيّة - بدور مصدر الإشعاع الديني والعلمي والثقافي.

ولابد من الفات النظر كذلك إلى أنّ هذا الحصن "كان به قسم مخصّص للنّساء المرابطات، المنقطعات للعبادة والقيام بأعمال البرّ والتّطبيب، ويعرف برباط النّساء الذي يقع أمام قصر هرثمة متّخذا من واجهته القبليّة جدارا شماليّا تفصل بينها ساحة مستطيلة الشّكل وهذا الوضع يفقده مظهر القصر الكامل القائم

(5) عقير محمّد الطاهر، من وحي الرّباط : هذه هويّة المنستير، مطبعة الهلال، ص 15، 1992.

(6) ابن عاشور محمّد الطّاهر : أليس الصبح بقريب، المصرف التونسي للطباعة، ص 73، 1967.

(7) كلمة حسن حسني عبد الوهاب في افتتاح متحف الفنون الإسلامية يوم 8/5/1958، جريدة العمل الأربعاء 6 أوت 1958.

بذاته ويفقده بعض العناصر التي تكوّن وحدة القصر ولكنّه يسجّل صفحة جديدة في تاريخ المجتمع الإسلامي في القرون الأولى لاختصاصه بمرابطة النّساء.

وقد وردت تسميته "رباط النّساء" لأول مرّة في نصّ نقله أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك عن الجغرافي القيرواني الأندلسي محمّد بن يوسف الورّاق (292هـ - 363هـ / 904 م - 973 م) وصف فيه القصر قائلاً (8): "والمنستير قصر كبير عال، داخله رباط واسع، وفي وسط الرّباط حصن ثان كبير، كثير المساكن والمساجد والهضاب العالية، طبقات بعضها فوق بعض وفي القبلة منه حصن فسيح فيه قباب عاليّة متقنة، ينزل حولها النّساء المرباطات تعرف بقباب جامع متقن البناء، وهو آراج معقودة كلّها وأقباء لا خشب فيها، ولها حمامات كثيرة، ومطاحن فارسية".

وقد قبل حديث الورّاق هذا بالشكّ والتردّد وبدا كأنّه من غير الممكن أن يكون للمرأة في المجتمع الإسلامي المالكي هذا الوضع المميّز لها ولكن البحث في بعض الوثائق والقرائن تؤكّد إلى حدّ كبير كلام محمّد بن يوسف الورّاق حيث أكّد الدكتور الباحث إبراهيم شبّوح (9) وهو المختصّ في تراث الأربطة أنّه اطّلع على نصّ كتب بالحبر على جصّ المحراب بمسجد هذا القصر وفيه : (البسمة - توفيت ميمونة في شهر رمضان عام أربع وخمسين فنسأل الله لنا ولها المغفرة) وتعني هذه الكتابة أنّ إحدى المرباطات سجّلت وفاة صديقة لها ماتت في الرّباط.

والجدير بالذكر كذلك أنّ أفريقيّة وسائر المغرب عرفت منذ أوائل القرن الثّالث حركة نشيطة لنشر المذهب المالكي وقد تحقّق ذلك على يدي الإمام سحنون بن سعيد القيروانيّ الذي أصبح كلّ شيء في عصره خاضعا للفقّه

(8) البكري أبو عبيد، كتاب المسالك والممالك، حقّقه وقّم له أدريان فان ليوفن للدار العربيّة للكتاب، ص 692، 1992.

(9) شبّوح إبراهيم أحمد، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة بإشراف الدكتور فريد شافعي أستاذ العمارة الإسلامية بجامعة القاهرة ديسمبر 1964، ص 215 .

المالكيّ وفي كتاب المدوّنة الكبرى التي رواها سحنون نفسه عن ابن القاسم عن مالك ابن أنس وفيها أسئلة لابن القاسم عمّا يجوز وما لا يجوز وفتاوى مالك في ذلك نجد فيها إجازة صريحة بمشاركة المرأة في المراقبة على السّواحل إذا كانت هذه السّواحل مأمونة مثل الإسكندرية وغيرها وهذا يجعل الفكرة في أساسها الشرعيّ ممكنة التحقيق في ذلك العصر.

كما أنّ الناحية المعماريّة لرباط النّساء تشتمل على ظاهرة جديدة تتمثّل في عدم وجود ممرّ أمام مسجده مثل الذي يوجد بقصر هرثمة وسوسة وإنّما تتّصل قاعة الصّلاة مباشرة بغرف المرباطات الجانيبة نتيجة حجب النّساء كي لا يكثرن التّردّد في الممرّات المكشوفة وحتى لا يثير وجودهنّ ما قد يثيره عادة من جذب الانتباه.

كما نلاحظ تواجد العنصر النّسائي بارزا في الأضرحة والزّوايا التي تضمّ رفات الشّخصيات الفاضلة على مثال السيّدة أمّ ملال عمّة المعزّ بن باديس الصنهاجي وزاوية السيّدة الفتحيّة وزاوية السيّدة البرقاويّة وزاوية السيّدة الكلّية.

ونختم بالقول في هذا المجال أنّ مشاركة المرأة في المراقبة بالمنستير جاءت كذلك نتيجة للأحاديث الموضوعية والأخبار التي تخصّ هذا الموقع دون غيره بالفضل والثّواب في الآخرة "وأنّه بابا من أبواب الجنّة من دخله فبرحمة الله ومن خرج منه فبغفو الله" (10).

كلّ هذه الأدلّة والقرائن تؤكّد مراقبة المرأة في القصر وتعاونها في هذا المجال مع أخيها الرّجل على الذود عن حمى المدينة وسكّانها ممّا يعطينا صورة واضحة على الدور الإيجابي والهامّ التي كانت تقوم به المرأة التّونسيّة بجانب أخيها الرّجل منذ ذلك الزّمان وكان المرباطون والمرباطات يلقون حظوة

(10) أبو العرب، طبقات علماء إفريقيّة وتونس، تحقيق علي الشّامي، الدّار التّونسيّة للنشر، 2005، ص 47.

وتقديرًا كبيرين واحترامًا كاملاً من سكان إفريقية لما يمثلونه من السلوك المستقيم في التدين والتقوى والتمسك بمبادئ الإسلام.

وكان من نتيجة كل ذلك أنّ الرّباط أصبح منذ عهده الأوّل يمثّل الإشعاع الرّوحي ومصدر الخير والبركة. وهكذا انضمّ حوله سكّان السّاحل وأحاطوه بهالة من التقديس حتّى تعلّقت همّتهم بدفن موتاهم حواليه ولو كانوا يسكنون بعيداً عنه. ونأخذ مثلاً على ذلك أنّ سكّان المهديّة أصبح من المألوف لديهم أن يحملوا موتاهم عن طريق البحر ليدفنوهم حذو الرّباط في المنستير⁽¹¹⁾. وأنشأت العائلة المالكة الصّنهاجيّة مقبرة خاصّة بها بمسجد السيّدة بالمنستير تضمّ عدّة ألقاب عسكريّة ومدنيّة بارزة كشفت عنها شواهد القبور⁽¹²⁾ وأصبحت بذلك المدينة مدفنًا لكبار الفاطميّين والصّنهاجيّين والعديد من أعلام تونس ما بين علماء أجلاء وقوّاد وفلاسفة وأطباء أمثال :

- الإمام المازري المحدث المتكلّم الذي تجددت على يديه مدرسة الفقه المالكي بعد انقراضها من القيروان وتتلّمذ له أفذاذ الأفرقة والمغاربة والأندلسيّين في عصره كالمهدي بن تومرت والفيلسوف محمّد بن أحمد بن رشد.

- الإمام ابن يونس الصّقليّ الفقيه المالكي

- القائد العسكري الكبير رجل الدولة الصّنهاجيّة بلكين بني زيري⁽¹³⁾

- الفيلسوف الأديب أبو الصلت أميّة ابن عبد العزيز ابن أبي الصلت الأندلسي⁽¹⁴⁾ الذي يقول في بيته المشهور

(11) عبد الوهاب حسن حسني، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، جمع وإشراف محمّد العروسي المطوي، مكتبة المنار 1972 ص 405.

(12) زبيس سليمان مصطفى، نقاش المنستير، مقدّمة حسن حسني عبد الوهاب، مطبعة لابراس ص 1 و 2 سنة 1960.

(13) زبيس سليمان مصطفى، الفنون الإسلامية في البلاد التونسية المعهد القومي للأثار، المطبعة العصرية، 1978 ص 100.

(14) مخلوف محمّد، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 200، سنة 1350 هجري.

إذا كان أصلي من تراب فكّلها بلادي وكلّ العالمين أقاربي

أمّا في خصوص المساجد التاريخية لمدينة المنستير العتيقة والتي لازالت تشهد على أهميّة هذا البناءات، فهناك مجموعة طيبة من آثار ملوك صنهاجة الدّينية تتمثّل في الجامع الكبير القديم ومسجد السيّدة ومسجد التوبة ومسجد السيّدة (15) معروف لدى المؤرّخين أنّه دفنت فيه السيّدة أمّ ملال عمّة المعزّ بن باديس فجهرّها وبالح في الإنفاق على دفنها بصورة لم تعهد من ملك قبله. ويمتاز هذا المسجد بمحرابه المضلّع على نحو محارة وقد أصبح هذا المحراب محراباً نموذجياً نسج على منواله في جامع سوسة وفي جامع المنستير الكبير وفي كثير من المساجد الأخرى. وهذا النوع من المحاريب نجده باطّراد في العمارة الإفريقيّة القديمة الرّومانيّة والبيزنطيّة وذلك مما يحملنا على القول بأنّ فترة الحكم الصّنهاجي المنبثقة روحه من أعماق التقاليد الوطنيّة هي فترة فنيّة تفرّغ فيها الفنّانون المعماريّون إلى إخراج قوالب البلاد الأصليّة من المخبّات.

كما هناك مسجد التّوبة أو الإمام المازري (القرن الخامس هجري الموافق الحادي عشر ميلادي) والذي تشتمل واجهته الشماليّة على عناصر فنيّة نجدها في معالم صنهاجيّة أخرى كالأقواس الصمّاء بجزء من الواجهة الشرقيّة للجامع الكبير بالمنستير وبقبة البهو بجامع الزيتونة وبإحدى واجهات جامع القصر بتونس وكذلك الأشرطة المنائنة والمحفورة التي تعلو الأقواس والتي نشاهدها في المحاريب الصّنهاجيّة وفي بابين من الزيادة القبليّة في جامع سوسة.

أمّا الجامع الكبير القديم الذي يقع بجانب الرّباط من الجهة الجنوبيّة، فهو يميّز باحتوائه على عدّة أقسام متلاحمة شاهدة على الحقبات التّاريخيّة التي تروي العديد من الخصائص المعماريّة المتنوّعة بدءاً من تأسيسه في العهد

(15) زبيس سليمان مصطفى، الفنون الإسلاميّة في البلاد التونسية المعهد القومي للآثار، تونس، المطبعة العصرية، 1978، ص 139.

الحفصي (القرن الثالث هجري/التاسع ميلادي) مروراً بالتوسعة الأولى في العهد الصنهاجي (القرن الخامس هجري/الحادي عشر ميلادي) ثم توالى التوسعات إلى حدود القرن الثاني عشر هجري الموافق للثامن عشر ميلادي لتنتج بذلك عمارة مسجديه قل وجود مثيلتها في العالم الإسلامي كما أكد ذلك الدكتور عبد العزيز الدولائي المتخصص في تراث العمارة الإسلامية عند زيارته هذا الجامع يوم الثلاثاء 24 ماي 2005.

أما الناحية الصحيّة، فكانت بارزة في جميع هذه المعالم وذلك من خلال توفر منابع وخزانات للمياه من آبار وموادل بها واستعمالها في مجالات نظافة البدن (الغسل والوضوء) ونظافة المكان زيادة على اعتماد أسس التهوية والإضاءة الطبيعية في النواحي المعمارية لهذه المعالم من خلال تشييد فضائاتها حول فناءات وساحات داخلية مكشوفة ومفتوحة.

وقد ساهمت هذه المعالم في إثراء الحياة الدنيّة للمدينة التي كانت مثالا للتسامح والتعايش بين مختلف الأديان كما يتبين ذلك من تموقع كنيسة المسيحيين وبيعة اليهود والمدرسة القرآنية ومسجدها بصفة متجاورة ومتلاصقة مما يعطي صورة واضحة للتسامح والتآخي والتعاون وحسن الجوار بين أتباع الديانات السماوية الثلاث كعناصر بارزة في بناء مجتمع سليم متجذر في تاريخه ومتفتح على الحضارات الأخرى وفي حوار متواصل معها.